اسم الدرس : تفسير سورة الأعراف (٩) | الآيات [٦٥ : ٧٩]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

نستكمل بإذن الله ﷻ بحوله وقوته ومدده ورحمته وفضله؛ وقفات ومدارسة سورة الأعراف.

كُنا قد توقفنا عند الآية الخامسة والستين في بداية قصة هود عليه السلام، تكلّمنا في المرة الماضية عن بداية إرسال الرسل وبداية إرسال نوح عليه السلام إلى الأقوام، كانت هذه بعد المقدمة الطويلة في سورة الأعراف.

تحدثت سورة الأعراف عن مجمل سريع ومُلخص سريع لحياة البشر وكيف تعاملنا مع الرسل، وكيف أنَّ المعرضين يتنزل عليهم العذاب وأنَّ المؤمنين يُنجيهم الله ﷻ بإيمانهم.

ثم بيَّنت السورة في آخر الآيات قبل الحديث التفصيلي عن إرسال الرسل؛ بيّنت السورة مثالًا كونيًا مُشاهَدًا أمامنا؛ فكما أنَّ الأرض تختلف في استجابتها للمطر؛ فكذلك تختلف استجابة القلوب لآيات الرسل، فمنهم مَن يقبل الآيات، ويقبل الرسالة، ويُزهر ويُثمر ويُخرج الطاعات، ومنهم مَن يُعرِض – والعياذ بالله– وتكون أرضًا خبيثة كما سماها الله ﷻ! لا تُخرج إلا نكدًا.

فبعد هذا المثال بدأ التفصيل، وبدأنا المرة الماضية في أول قصة، في إرسال نوح عليه السلام إلى قومه، وتكلمنا كيف واجهه الملأ من قومه، وكيف أعرضوا عن دعوته.

قصة دعوة سيدنا هود لقومه قوم عاد:

ثم ثنَّى الله ﷻ بهذه القصة فقال رَبُّنا ﷻ: {وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ} [الأعراف ٦٥-٦٦]

{وَإِلَىٰ عَادٍ} [الأعراف ٦٥] أي: وأرسلنا أيضًا إلى عادٍ؛ هودًا، كما أرسلنا إلى قوم نوح، فكذلك أرسلنا إلى عاد.

بدأت الآيات المرة الماضية بقول الله ﷻ: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا}[الأعراف ٥٩] فقالوا إنَّ هودًا عليه السلام؛ هذا الاسم جاء منصوبًا؛ لأنه مفعول به لفعل (أرسلنا)، الله ﷻ أرسل هوداً إلى عاد.

ماهو أسلوب سورة الأعراف في عرض قصص الأنبياء ؟

سورة الأعراف من المرة السابقة تحتوي على كثير من القَصص، بخلاف سورة الأنعام وبما أننا نسير في مجلس مُدارسة؛ فسوف نحاول قدر المستطاع ألا نخرج كثيرًا عن سياق الآيات، وإن كانت هذه القصص وردت في سور أخرى بسياقات مختلفة.

أغلب القَصص الموجودة معنا في سورة الأعراف ورد في سور أخرى إلا بعض القصص؛ كقصة الذي انسلخ من الآيات، وقصة الذين اعتدوا في السبت، جاءت مُجملة في مواضع وجاءت مُفصَّلة في سورة الأعراف، لكن غالب القَصص جاء مُفصَّلًا في أماكن أخرى.

فنحن بقدر المستطاع سوف نحاول أن نقتصر على سياق سورة الأعراف، إلا إذا اضطُررنا أن نخرج لنذكر بعض الفروقات في السور الأخرى، فالدرس ليس قَصص الأنبياء أو السابقين حتى نستطرد في تفاصيل قد وردت في إسرائيليات، أو قد أتت حتى مروية عن النبي □، لكن قدر المستطاع سوف نحاول أن نلتزم بالسياق في سورة الأعراف.

من هم قوم عاد؟

قال رَبُّنا سبحانه وتعالى: {وَإِلَىٰ عَادٍ}[الأعراف ٦٥]، قوم عاد قومٌ متجبرون متكبرون معروفون بقوتهم، وكيف كانوا يتكبرون ويقولون {من أشد منا قوة}[فصلت ١٥] تخيَّل أنَّ قومًا يقولون هذه الكلمة ويتجبرون في قمة العتو والتكبر، ثم أنَّ الله ﷻ لا يتركهم ولكن يرسل إليهم رسولًا.

فمهما تجبَّر الإنسان ومهما تكبَّر؛ لا ينبغي أن يمتنع الدعاة عن مخاطبته وعن إرسال أحدٍ إليه، فالله ﷻ أرسل هودًا بالرغم من تجبُّر عاد وبالرغم من تكبُّرهم، ولكن الله ﷻ أرسل إليهم هودًا عليه السلام، نعم يُختار في هذه المهام صاحب القلب القوي صاحب الدين القوي؛ لئلا يُفتَن في هذه المهام.

وهذه المهام ليست واجبة على الجميع لكن ينبغي ألا يخلو طاغية أو متكبر، أو عاتٍ مُتجبر من نُصح، لا بد أن ننصحه، لا بد أن يتقدم أحدٌ إليه لينصحه؛ ولذلك قال النبي ﷺ فيما يروى عنه: (أن خير الشهداء حمزة ورجل قام إلى سلطان جائر فنصحه فقتله!)[1].

بعثة سيدنا هود إلي قوم عاد بالرغم من تجبرهم: -هذا من رحمة الله تعالي-

إذًا؛ تجبُّر عاد لم يمنع من إرسال نبي الله هود إليهم، فأرسل الله ﷻ هودًا إلى قوم عاد بالرغم من تكبُّرهم وتجبُّرهم وعُتوّهم، فقال رَبُّنا ﷻ: {وَإِلَىٰ عَادٍ} [الأعراف ٦٥] أي: وإلى هؤلاء القوم المتجبرين المتكبرين المعروفين بعُتُوهم؛ أرسل الله إليهم هودًا ولم يتركهم سدى.

سيدنا هود كان من بين أظهر قومه فقال الله أنه أخ لهم للتأليف بينهم وأن ذلك أعدى أن يصدقوه:

{وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ} [الأعراف ٦٥] أرسل الله ﷻ إليهم رسولًا منهم، من قوم عاد فقال: {أخاهم}؛ لذلك العلماء اختلفوا في الأُخوّة؛ لأنَّ غالب الأُخوّة قد يُطلق على الدين، لكن استعمال القرآن للفظ الأُخوّة لم يقتصر على أخوة الدين فقط، وإن كان لفظ الأُخوّة جاء في القرآن في استعمال أخوة الدين كما في سورة الحجرات؛ {فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} [الحجرات ١٠]، **أما هُنا فأُخوّة النسب**، فأيضًا الأُخوّة قد تُطلق على أنه من نسبهم أو من قومهم، أو من بلدهم، من نفس المكان.

فقال رَبُّنا جل جلاله: {وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا} [الأعراف ٦٥] قال بعض المفسرين لماذا أخبرنا الله ☐ بكلمة أخاهم وأنه منهم؟ الزمخشري قال: "حتى يكون هؤلاء القوم أفهم لكلامه"، عندما يدعو الداعية قومه، ويعرفهم، ويعرف واقعهم، ويعرف تفاصيل حياتهم وتجبُّرهم وعُتوّهم، وهو منهم، ويعلم كيف يدخل إليهم، هذه الدعوة تكون أدعى بالقَبول.

لذلك عندما بدأ النبي ﷺ، بدأ بدعوة قومه أولًا وهو منهم، هو الصادق الأمين بينهم هم يعرفونه؛ يعرفون نسبه، يعرفون فضله، يعرفون خُلُقه، يعرفون أنه الصادق، أنه لم يكذب.

[1] [عن جابر بن عبدالله:] سيِّدُ الشُّهداءِ حمزةُ بنُ عبدِ المطَّلبِ، ورجلٌ قام إلى إمامٍ جائرٍ فأمره ونهاه فقتله
الألباني (ت ١٤٢٠)، السلسلة الصحيحة ٣٧٤ • صحيح • أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (١/١٨٦)، والحاكم (٤٨٨٤)، والديلمي في «الفردوس» (٣٤٧٢) باختلاف يسير.

فكذلك أيضًا هود جاء منهم، وكأن هناك إشارة إلى أنَّ الداعية المؤثر هو الذي يعلم واقع الناس؛ يتكلم في واقعهم لا يتكلم بعيدًا عن حياتهم؛ لذلك عندما كان المشركون يطلبون أن يكون الرسول المرسَل إليهم مَلَكًا؛ فاعترض القرآن على هذا، كيف يكون مَلَكًا؟!

حكمة بعثة الله الرسول من بين قومه:

لو أنَّ المرسَل إلى المشركين كان مَلَكًا؛ كان المشركون سيقولون إنه لا يشعر بنا؛ المَلَك ليس لديه شهوات، هو لا يشعر بحاجتنا، هو يأمرنا أن نغض الأبصار وأن نبتعد عن الشهوات هو لا يشعر بما نشعر به، لكن حينما يكون الرجل من واقع القوم يتعرَّض لنفس الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهو بشر ويعاني معهم، ثم يتفوق على هذه المشاكل ويدعو قومه إلى أن يجتازوا هذه المشاكل؛ تكون دعوته أدعى لقبول قومه، ويكون قوله له واقع في نفوسهم؛ لذلك كما قال رَبُّنا جلَّ جلاله أيضًا ليس في مجرد أنه منهم، أيضًا بلسانهم؛ بلسان قومه كما أخبر رَبُّنا جلَّ جلاله في سورة إبراهيم.

فقالوا إنَّ كلمة أخاهم تفيد هذا المعنى؛ أهمية معرفة واقع الناس حتى لا يكون الداعية يتكلم في واقع والناس في واقع مختلف تمامًا. " **أهمية مراعاة واقع الناس**"

هذه المسألة أحيانًا تُقلَّل عند بعض الناس، وأحيانًا تتضخم عند البعض، قضية أهمية الواقع؛ بعض الناس يقلل هذا الأمر لدرجة أنه لا يعتبره أصلًا، وأنَّ القضية هي بعض المعلومات في الشريعة لا بد أن يفقهها الإنسان وفقط، وبعض الناس يضخم قضية الواقع وكأن الواقع هو كل شيء، المطلوب هو التوازن.

الأركان التي يقوم عليها الداعية:

- الركن العلمي.
- ركن -وإن صح التعبير- نُسمّيه الفكري؛ فهم الواقع.
- ركن الأخلاق.

غياب ركن من هذه الأركان يهدم في دعوة الإنسان، أي: لو أنَّ إنسانًا لديه فهم جيد للواقع لكن ليس لديه علم لن يستطيع أن يدعو إلى الله على بصيرة.

أيضًا إنسان لديه علم لكن ليس لديه فهم للواقع قد يفسد وقد يُستعمَل من قِبل أهل الباطل وهو لا يفهم الواقع، لا يفهم أولويات الدعوة الآن في هذا المكان.

لذلك تجد أنَّ لوطًا عليه السلام تكلم في الفاحشة، وأنَّ شعيبًا عليه السلام تكلم في المشاكل الاقتصادية، في تطفيف الميزان، هُناك مشاكل اقتصادية معينة موجودة، كل نبي خَصَّ قومه بدعوة معينة، منهم مَن ترك الدعوة مجملة مثل: نوح وهود تكلموا كلامًا مجملًا عن التوحيد، ومنهم من خَصَّ بمعصية معينة منتشرة، وقد تستجلب العذاب فأخبرهم بذلك، فقضية فهم الواقع أمر مهم.

وثالثًا: الركن الخُلقي؛ قد يكون الشخص لديه علم ولديه فهم للواقع لكنَّه فَظًا بذيء اللسان! هذا لا تُقبَل دعوته، قال رَبُّنا ﷻ: {وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ}[آل عمران ١٥٩] فالإنسان يحتاج إلى بناء في هذه الأركان بالطبع، بالإضافة للبناء الإيماني، وهو الدافع لكل هذه الأشياء.

لماذا تبدأ دعوة جميع الأنبياء بالتوحيد؟

{وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداًۚ قَالَ يَٰقَوْمِ}[الأعراف ٦٥] أيضًا نسبهم إلى نفسه، {قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ}[الأعراف ٦٥] نفس دعوة نوح عليه السلام؛ **اتفقت الدعوات على البداية بالتوحيد**، هذه نقطة هامة جدًا في مسألة أولويات الدعوة، وأنها تبدأ دائمًا بقضية التوحيد والدار الآخرة، وأنَّ الدعوات التي تدعو إلى إعمار الأرض قبل الكلام عن التوحيد والدار الآخرة؛ هي دعوات منكوسة قلبت هرم أولويات الدعوة، لم تُحسن فقه أولويات الدعوة.

فبعث الله ﷻ الرسل ليستنقذوا أقوامهم من نزول العذاب عليهم بسبب كفرهم وبسبب معاصيهم، فحينما يتجه الداعية إلى أقوام وهم غارقون في الشرك وفي المعاصي والفجور، وهذا الشرك وهذه المعاصي قد تستجلب عذاب الله ﷻ عليهم ثم هو لا يُكلّمهم في هذه الأمور، لا يُكلّمهم في الشرك ولا يُكلّمهم في المعاصي، بل يبدأ معهم من أطراف الدين ولا يصل أبدًا إلى المنتصف؛ لأنه يظل في هذه المنطقة المريحة، قد تكون مريحة له وللناس؛ لا ينتقل للمنطقة الأساسية؛ دعوة التوحيد والدار الآخرة، هذه دعوة منكوسة قلبت أولويات الدين.

فبدأ بوضوح وبصراحة؛ أنا أتيت إليكم لأدعوكم إلى توحيد الله، يُكلّمهم... هم أصلًا كانوا أصحاب قوة، وكما كان قوم صالح أصحاب بناء يبنون بكل ريع آية يعبثون، ففيمَ يُكلّمهم في الدنيا؟ هو يُكلّمهم في الآخرة.

أحيانًا قد يأتي داعية إلى أُناس هم متقدمون دُنيويًا ولكنه يخاف عليهم بسبب إعراضهم عن الله، فحينما تكون الدعوة إلى إعمار الدنيا هي الأصل هذه دعوة منكوسة قلبت أولويات الدين.

دعوة التوحيد لا بد أن تكون واضحة:

{قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ}[الأعراف ٦٥] دعوة التوحيد لا بد أن تكون واضحة بدون موارية {مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ}[الأعراف ٦٥] أفلا تتقون عذابه، أفلا تخافون نزول العذاب عليكم بسبب شرككم، أفلا تتقون! نجد بعد الدعوة إلى التوحيد مباشرة ينطلق الملأ.

عندما تكون الدعوة واضحة ينطلق الملأ للرد، قضية هامة جدًا؛ **ظهور أهل الباطل بوضوح وبصراحة مبني على صراحة الداعية**، أي: إذا دلَّس الداعية في الدين ولم يكن واضحًا؛ فإن أهل الباطل لا يظهرون بوضوح، هم أيضًا يصبحون مُدلِّسين، أما حينما يكون الداعية واضحًا ويدعو إلى التوحيد بوضوح وخوف من نزول العذاب بسبب المعاصي؛ يضطر أهل الباطل إلى الإعراض الواضح والصريح.

بم يقابل القوم المستكبرين دعوة التوحيد؟

فقال الملأ مباشرة {قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ}[الأعراف ٦٦]، نجد هُنا أنَّ في قوم نوح {قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ}[الأعراف ٦٠] أما هُنا {قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ}[الأعراف ٦٦] فالعلماء توقفوا هُنا لماذا كلمة {ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} زادت؟

في الآيات السابقة في نفس الصفحة {قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ}[الأعراف ٦٠] هُنا {قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ}[الأعراف ٦٦]، تكلمنا في الملأ، قلنا معنيين: الذين يملؤون أعين الناس، ويملؤون قلوب الناس بالزخارف والمال والعدة والعتاد فيهابُهم الناس، هم مُقدَّمون عند الناس، وأيضًا هؤلاء الملأ يُمالئون بعضهم البعض، أي أنهم متفقون على رأي واحد فهم قلة متحكمة في عموم الناس.

لفظة {ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ}[الأعراف ٦٦] قال بعض أهل العلم: لأن ليس كل الملأ في قوم هود كفروا، أما كل الملأ في قوم نوح كفروا، الملأ: الناس المتقدمة القادة المتبوعون، كلهم كفروا في زمن نوح فلم يحتَج القرآن إلى ذكر قيد {قال الملأ الذين كفروا} فلما قال رَبُّنا: {قَالَ ٱلۡمَلَأُ} علمنا أنَّ كل الملأ كفروا.

لكن في زمن هود بعض الملأ آمن فجاء هذا اللفظ للتقييد، ماذا يعني للتقييد؟ أي ليس كل الملأ في قوم هود كانوا كفارًا، هذا قول الزمخشري، واعترض عليه أغلب حواش الكشاف مثل الطيبي وغيره، قالوا كيف؟ يوجد {قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ}[الأعراف ٦٦] من قوم نوح في سورة هود والمؤمنون! أي أنَّ كلمة قيد {ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} جاءت مع الملأ، جاءت في سورة هود والمؤمنون، إذًا هذا الكلام غير صحيح، واعترضوا على هذا الكلام وبالفعل هذا الكلام مُعترَض عليه.

لكن لماذا القيد؟ بعضهم قال لأنهم كانوا أشد طغيانًا وكفرًا وعُتوًّا، لماذا؟ لأنهم رأوا عذاب قوم نوح، لكن قوم نوح لم يروا عذاب مَن قبلهم.

لذلك لو تتذكروا أننا قُلنا في معنى قوله ﷻ: {وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[الأعراف ٦٢] سيدنا نوح يقول لقومه أعلم مدى عِظم عذابه ﷻ لو نزل عليكم، لم يخبرهم اتقوا ما نزل على القوم السابقين؛ لأنه لم ينزل عذاب عام فيما ذُكر لنا ووصل إلينا قبل قوم نوح، لكن قوم هود هم يعلمون أنَّ هناك قوم نوح نزل عليهم الطوفان وأغرقهم واستخلفهم الله ﷻ بعدهم ثم هم يتجبرون و يتكبرون ويكفرون؛ وصف زائد.

الكفر والكبر علي الحق في تزايد عبر العصور وليس في نقصان:

هذه الفائدة التي نأخذها من الآية، وفائدة السياق؟ نحن قُلنا إنَّ من المعاني الهامة في سورة الأعراف مسألة **تطور الكفر وتطور المعصية** وذكرنا هذا بالتفصيل في تفسير قوله ﷻ: {وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ}[الأعراف ٢٨] وذكرنا كيف أنَّ الأمر بالفاحشة يتطور من مجرد الفعل إلى تحويلها إلى شريعة وإلى دين، فهُنا أيضًا أنَّ الملأ يتطورون:

- سنجد في البداية {قال الملأ} فقط {من قومه}[الأعراف ٦٠].
- في قوم هود {قال الملأ الذين كفروا}[الأعراف ٦٦].
- قوم صالح {قال الملأ الذين استكبروا}[الأعراف ٧٥] أي ضموا إلى الكفر الاستكبار.
- قوم شعيب نجد الاثنين مرة {قال الملأ الذين كفروا}[الأعراف ٩٠] ومرة {قال الملأ الذين استكبروا}[الأعراف ٧٥].

فكأن هناك طغيانًا يزداد، الملأ يزدادون طغيانًا، أي أنَّ البداية الملأ فقط، ثم الملأ الذين كفروا، ثم الملأ الذين استكبروا، ثم كلاهما؛ الملأ الذين كفروا والذين استكبروا. فهذا من علامات زيادة طغيان الناس مع مرور الزمان؛ لأن مع مرور الزمان تزداد الآيات والأقوام الذين أُهلكوا يزدادون وبالرغم من ذلك يستمر العناد!

الأقوام يحاولون أن يطوّروا الفاحشة:

نحن قُلنا بعض الكُتّاب –ولا سيما من المعاصرين– حاول الربط بين قصص الأنبياء في سورة الأعراف؛ أنَّ الأقوام يحاولون أن يطوّروا الفاحشة؛ في البداية واجهوا قوم نوح قالوا إنَّه ضال {إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ}[الأعراف ٦٠] ثم بعد ذلك اتهموه بالسفاهة، والاتهام بالسفاهة أشنع وأقبح من الاتهام بالضلال؛ لأن الضلال من الممكن أن يكون إنسانًا عاقلاً لكنه لم يُصب الحقيقة، لكن السفاهة هم يتهمونه في أصل العقل، ليس فقط اختار رأيًا خطأ أو خطأ في الدين، لا بل يتهمونه في أصل عقله!

ثم بعد ذلك في قوم صالح عقروا الناقة، ثم بعد ذلك في قوم لوط نشروا الفاحشة، ثم بعد ذلك مع قوم شعيب سيطروا على الاقتصاد وفعلوا معاصي اقتصادية وأزمات اقتصادية وسيطروا على الاقتصاد، فكأن المجتمعات تتطور كما سنجد ونحن نتكلم عن جريمة قوم لوط عليه السلام.

قُلنا إنَّ أكثر سورة وردت فيها **كلمة الملأ؛ سورة الأعراف**، ورد فيها ما يقرب من **سبع مرات**، {قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ}[الأعراف ٦٦]

اتهامات قوم عاد لسيدنا هود:

أيضًا الملأ يتكلمون بصيغة التأكيد {إِنَّا لَنَرَىٰكَ} وشرحنا هذا الأسلوب المرة الماضية، التأكيد، يؤكدون أننا كلنا مجتمعون، ونؤكد أننا وصلنا إلى مرحلة اليقين {إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ}[الأعراف ٦٦] (في) أي: غارق –في هذا الظرف– وكأنه لم يخرج من السفه في كل ما يقول.

ما الذي قاله هود يدعو إلى السفاهة؟ قال: {ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ}[الأعراف ٦٥] أحيانًا يقوم المؤمن بعمل طاعة أو يدعو إلى الله ﷻ يدعو إلى دينه، يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر فيتَّهمه الناس بالسفاهة وهو ماذا فعل؟ الاتهام بالسفاهة أمر من قديم وكان يقوم به اليهود والمنافقون يتَّهمون أهل الدين.

هناك بعض الأعمال يقوم بها أهل الدين، لا يستطيع أهل الباطل ولا أهل الضلال استيعابها ولا تصوّرها، ماذا يعني أن تضحي من أجل الله، لا يتصور ماذا تعني قضية التوحيد فقط، وأنَّ هناك إله واحد، أي أنَّ جميع الآلهة الموجودة تلك خطأ! وجميع الأجداد والآباء خطأ! فيتهمونك أنت بأنك سفيه، إذا واجهت معصية أو فاحشة أو كفرًا أو شركًا ساد وانتشر بين الناس، وأردت أن تُغيّر هذا في الواقع، سرعان ما يتهمك الناس بالسفاهة.

لذلك في بداية سورة البقرة قالوا: {أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ} [البقرة ١٣] اليهود والمنافقون نشروا أنَّ المهاجرين والأنصار سفهاء، لماذا سفهاء؟ فقالوا إنَّ المهاجرين تركوا أرضهم ووطنهم وديارهم وأموالهم، لماذا؟ ما هذا السفه! وأنَّ الأنصار يتبرعون بنصف أموالهم إلى أقوام لا يعرفونهم، ما هذه السفاهة!

أعمال الدين تكون بالنسبة لكثير من الناس الذين لا يعلمون شرع الله ﷻ ولا عظمته ﷻ ينظرون إليها على أنها سفاهة، فلا تجعل هذه النظرة تسيطر عليك.

أحيانًا بعض الناس ينظر إلى الذي يريد أن يدعو إلى الله ﷻ أو أن يُضحي في سبيله، إلى أنه سفيه، وهو لم يفعل شيئًا! هو أراد أن يضحي لأجل خالق السماوات والأرض، يتقرب إلى مولاه إلى سيده، ثم يتَّهمونه بالسفاهة!

ما الذي فعله هود حتى يُتَّهم بالسفاهة وهو ينشر دعوة التوحيد، تقولون عليه أنكم متأكدون أنه في سفاهة لم يخرج منها بسبب دعوة التوحيد!

{إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ} [الأعراف ٦٦] وأيضًا أنت لم تكتفِ باختلال العقل، بل ضممت إليه الكذب {وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ} وكأنها كلمة احتراز والتفريق بين (نراك-نظنُّك) وكأنهم يحترمون معايير التقييم، أي: نحن لم نصل بعد ليقين بأنك كاذب، لكن نحن لدينا يقين بأنك سفيه {إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ} [الأعراف ٦٦] نحن غير متأكدون لكن نحن سنبحث {وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ} [الأعراف ٦٦].

لذلك بعض أهل العلم قال إنَّ الظن هُنا على حقيقته، وإنَّ هذه طريقة مُعينة يُدلِّسون بها على الناس من أجل أن يتظاهروا بالإنصاف أمامهم؛ لأن الملأ يتكلم دائمًا أمام الناس، وبعضهم قال إنَّ الظن هُنا بمعنى اليقين.

لماذا قال الله: {إِنَّا لَنَرَىٰكَ}[الأعراف ٦٦]، وهُنا قال: {وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ}[الأعراف ٦٦] قيل: بسبب تنويع اللفظ، لكن مسألة أنهم بالفعل يُدلِّسون في الألفاظ ويستعملون مصطلحات توحي وكأنهم أهل إنصاف، نحن موقنون ولدينا أدلة أنك في سفاهة، لكن مسألة الكذب نظُنّك من الكاذبين.

خروج الأنبياء من قالب شخصنة الدعوة :

أدب الأنبياء في الرد؛ قال: {قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ}[الأعراف ٦٧] فقط! انظر كيف اتهموا هودًا عليه السلام، وهو اكتفى بنفي هذه التهمة، لم يدخل معهم في معارك وهمية في ((شخصنة الدعوة))، هم يريدون أن يُشَخْصِنوا الدعوة ويقفوا عند شخصه فيظل يدافع عن نفسه كثيرًا.

هود عليه السلام جاء بصفة -إن صح التعبير- رسمية وليس بصفته الشخصية؛ هو رسول، هو يُطبِّق هذا الدين على نفسه لكنه جاء كرسول؛ لذلك عندما أراد فرعون أن يُشَخْصِن قضية الدعوة وقال: {وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ}[الشعراء ١٩]، فقال موسى عليه السلام في سورة الشعراء ردًّا عليه: {قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ}[الشعراء ٢٠].

لكن ما علاقة هذا بما أُخبرك به من توحيد الله ﷻ؟! نعم أنا أخطأت لكن تُبت إلى الله ﷻ، ما علاقة هذا بما أدعوك إليه؟! ما علاقة أنني أخطأت واعترفت ثم أنت تتهمني بخطأ أنت السبب فيه {وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ}[الشعراء ٢٢] تُمن عليَّ أن ربَّيتني في بيتك، وهل ربَّيتني في بيتك إلا بسبب أنك كنت تُذبِّح الأطفال! وهل رمتني أمي في اليَم إلا خوفًا منك! تُمن عليَّ بشيء أنت السبب فيه!

فالشاهد الخروج من قضية شخصنة الدعوة؛ يسعى أهل الباطل دائمًا أن يترصد للداعية أي خطأ ويريد أن يقف عند هذه النقطة، لا بد أن يتجاوز الداعية هذه النقطة، فإن أخطأ فليعترف ثم ينتقل سريعًا إلى دعوة التوحيد والدار الآخرة.

بم رد عليهم إذا ؟

{قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ}[الأعراف ٦٧] دعكُم من هذا الكلام {وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ}[الأعراف ٦٧] ما أقوله ليس من عندي هو من عند الله جلّ جلاله ، نفى عن نفسه أي اتصال بالسفاهة وكما قُلنا هذه دعوة قديمة حديثة؛ أن يتهموا أهل الدين بالسفاهة. هذا لأنه لا ينتصر لنفسه إنما كل همه الدعوة إلى الله

لأن في مسألة السفاهة من الممكن أن يختلف الناس في المعايير؛ تجد اثنين يختلفون؛ هذا الفعل من السفاهة أم لا؟ فما هو المعيار الذي نضعه لنُقَيِّم فعل من الأفعال هل هذا الفعل من السفاهة أو هذا الفعل عقل؟

لأن أحيانًا قد لا يستوعب العقل البشري القاصر فعل معين، أن يقوم شخص بالتضحية بنفسه ويموت في سبيل دينه! العقل المحب للدنيا المتَّبع للشهوات قد لا يستوعب ذلك فيقول هذا إنسان سفيه! {غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ}[الأنفال ٤٩] هؤلاء الناس مخدوعون {وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِۖ}[هود ٢٧] هؤلاء الناس لا يُفكِّرون، هؤلاء الناس يُخدعون بسهولة {بَادِيَ ٱلرَّأۡيِۖ} أي: بمجرد أن بدا لهم أن يتَّبعوك ساروا خلفك بدون تفكير.

فما هو المعيار الذي وضعه القرآن؟ قال الله ﷻ: {وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ}[البقرة ١٣٠] نحن نقيس على ملة إبراهيم؛ لأنه مقياس أُممي! سيدنا إبراهيم من أكثر الأنبياء تضحيةً في سبيل الله، حتى لا يُتَّهم أحد ضحَّى لدين الله ﷻ ، أنه سفيه، هذا اتهام ضمني -وحاشاه- لإبراهيم عليه السلام أيضًا! فإبراهيم عليه السلام تنفيذًا لأوامر الله ضحَّى بزوجته وبولده و بأهله وبنفسه، إبراهيم عليه السلام قدَّم كل هذه التضحيات.

استكمال دعوة هود لقومه بالرغم من أذاهم:

{قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ}[الأعراف ٦٧] وأيضًا ما تقولونه فيّ لن يمنعني من استكمال دعوتي. {أُبَلِّغُكُمۡ}[الأعراف ٦٨] بصيغة المضارع كما تكلمنا في قصة نوح. {أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي}[الأعراف ٦٨] لن أترك رسالة واحدة! {رَبِّي} لأنها من أوامر الملك ﷻ لي.

{أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي} وبالرغم من أنكم تسبونني وتشتمونني لكن أنا لكم ناصح أمين أقابل هذه السفاهة منكم وهذا الطيش والحمق؛ أقابله بأني لكم {نَاصِحٌ أَمِينٌ}[الأعراف ٦٨] ...ثم مم تعجبون؟! {أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ}[الأعراف ٦٩] شرحنا نفس الآية في قصة نوح، ثم زاد؛ {وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ}[الأعراف ٦٩] لأن هناك حدث زاد وهو إهلاك قوم نوح فاستعمله هود عليه السلام في الدعوة، هذا الحدث؛ إهلاك قوم سابقين لم يحدث قبل زمن نوح فلم يستعمله نوح عليه السلام في الدعوة، أما هذا الحدث فحدث قبل زمان هود فاستعمله هود.

هذا يعطي إشارة إلى الداعية أنَّ الأحداث والأقدار التي تحدث؛ مثلًا موت فلان على معصية، إهلاك أقوام عصوا الله جلَّ جلاله ، هذه **الأحداث الكونية التي تحدث بتقدير الله جلَّ جلاله لا بد أن يستعملها الداعية في الدعوة إلى الله جلَّ جلاله**.

بعض الناس يقول لا تتكلم في الأحداث؛ لأنه من الممكن أن يرد عليك، وأنَّ هذه بسبب أسباب ليست من عند الله!... هود عليه السلام قال لهم إنَّ الله جلَّ جلاله جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح و استخلفكم بعدما أهلك قوم نوح {وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةًۖ}[الأعراف ٦٩] **خوَّفهم ثم ذكَّرهم بالنعم**، أيضًا حينما ترى نعمة معينة في أقوام؛ تُذكّرهم بهذه النعمة وتقول إنَّ الله جلَّ جلاله خصَّكم بهذه النعمة وإنَّ الله جلَّ جلاله قادر على أن ينزع هذه النعمة منكم، ما الذي جعل هذه النعمة خاصة بقوم عاد؟! هي من تقدير الله جلَّ جلاله ، الله قادر على أن ينزع هذه النعمة منهم.

{وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةًۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ}[الأعراف ٦٩] التفكر في نعم الله جلَّ جلاله وآياته {فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[الأعراف ٦٩] هذا خطاب مُوَجَّه لهم، بعد أن اتهموه بالسفاهة، سيدنا هود زاد في الخطاب فجعله أقوى واستفاض في الخطاب فتراجع موقفهم.

اتهموه في البداية بالسفاهة! هذا الخطاب لا يخرج من سفيه، هذا الخطاب المرتب؛ الإنذار،والتذكير بالنعم {فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ}[الأعراف ٦٩] ، لا يدعو إلى نفسه بل يدعو إلى الله جلَّ جلاله ، هذا الخطاب لا يخرج من سفيه!، فسقط ادعائهم بالسفاهة، فاضطروا أن يواجهوا دعوة التوحيد الأولى {مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ}[الأعراف ٦٥].

قوة الداعية تجعل أهل الباطل يتراجعون، استمرار الداعية في طريقه وقوة طرحه تجعل أهل الباطل دائمًا يتراجعون خطوة إلى الوراء، فتراجعوا خطوة للوراء، عادوا مرة أخرى يتكلمون في التوحيد، هم منذ البداية لم يريدوا أن يفتحوا قضية التوحيد أصلًا، قالوا: {إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ}[الأعراف ٦٦] هو يكلمهم في التوحيد؛ اتركوا هذه الآلهة ولا تشركوا بالله شيئًا.

يُقال إنه كان لهم أصنام كثيرة منها ثلاثة مشاهير كانت مُوزعة في قبائل؛ لأن قبيلة عدن كانت ناحية اليمن، حضرموت من اتجاه اليمن إلى عمان، كان لهم في هذه المنطقة ثلاثة أصنام مشاهير كما يقول كتاب السِّيَر.

الشاهد أنه دعاهم إلى التوحيد فلم يستجيبوا في البداية لدعوة التوحيد، اتهموه بالسفاهة فقط وأعرضوا، فلما استمر في دعوته اضطرهم إلى الرجوع إلى نقطة التوحيد {قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا} [الأعراف ٧٠]

يصبح هُنا لديهم مشكلتين:

- مشكلة التوحيد.
- ومشكلة ترك ما كان عليه الآباء.

هذه إشكالية –كما قلنا– مستمرة معنا في سورة الأعراف، مسألة ما كان عليه الآباء، الأتْباع والمتبوعون قضية موجودة معنا في سورة الأعراف.

فيتعجبون {وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ} [الزمر ٤٥]، أن تذكر الله ومعه آلهة أخرى قد يطمئن البعض، أنت تذهب لربك وأنا أذهب إلى آلهتي، أنت ترى تشريعًا لربك وأنا أرى للآلهة، أو تعبد إلهي عامًا وأعبد إلهك عامًا.

أهمية الإصرار علي التوحيد في الدعوة:

أي أنه هناك نوع من المفاوضات، لكن حينما تُصر على التوحيد؛ أنت تُصر على توحيد مصدر التلقي وأنَّ الشريعة واحدة نزلت من رب واحد؛ فأنت سوف تسحب البساط من تحت أرجلنا، ما حققناه من مكاسب بسبب وجود الآلهة، من مكاسب اجتماعية، من سيطرة على الناس، من مكاسب اقتصادية سوف تُنزع!

حينما تصر على التوحيد، وأنك الرسول، كل هذه المكاسب التي حققناها بعد أن أصبحنا الملأ، هذه المكاسب سوف تُنزع منّا، وغالب الصراعات كان سببها الحفاظ على هذه المناصب، أنهم كانوا يرفضون أن يتنازلوا عن مناصبهم.

لذلك بعضهم اشترط أن يدخل مع النبي ﷺ في الدين؛ ولكن يكون له الأمر من بعد النبي ﷺ، أو يشاركه في المُلك، هو ينظر إلى النبوة بنظرة حسد يريد أن يشاركك أو تَكِل إليه الأمر من بعدك، فرفض النبي ﷺ تدخُّل عبد لله ﷻ، الله –عزَّ وجل– يوزع ويعطي الأرزاق كما يشاء –سبحانه وتعالى–.

مشكلة أهل الكفر ليست في توحيد الربوبية إنما في توحيد الألوهية:

فقالوا: {أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَه}[الأعراف ٧٠] تكون الإشكالية ليست فقط لنعبد الله؛ لذلك هذه خطورة عندما يدعو الداعية؛ لا يدعو إلى دعوة التوحيد؛ لذلك دعوة التوحيد هي "لا إله إلا الله" هي نفي وإثبات ليس فقط الله ربي، هذه ليست دعوة التوحيد، دعوة التوحيد هي "لا إله إلا الله" {فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ}[البقرة ٢٥٦].

فالكلام عن أنَّ الله هو الرب ﷻ، وأنه قادر، هذه دعوة صحيحة ولكنها ناقصة ولاسيما في وجود تشريعات وآلهة أخرى؛ لأن البعض قد يفهم من كلامك أنك تتكلم عن ربك لكن أيضًا هذا لا يمنع من وجود آلهة أخرى، أو أنت تتكلم عن أنَّ الله ﷻ نزَّل تشريعًا للناس لكن هذا لا يمنع من وجود تشريعات أيضًا قد تكون أفضل أو مساوية.

في الوقت الذي يحدث فيه هكذا لا بد أن يواجه الناس هذا الشرك الموجود في التشريع وفي غيره بدعوة التوحيد، لا بد أن تكون دعوة التوحيد صافية.

لذلك هم تعجبوا كيف نعبد الله وحده! ماذا عن الأصنام؟ والترتيبات القائمة على الأصنام، والهياكل المبنية والأموال التي تأتي من وراء الأصنام؟ وأنَّ فلانًا أصبح رئيس القبيلة؛ لأنه من سدنة هذه الأصنام؟

أنت سوف تُغيّر كل النظام المجتمعي، فرفضوا {وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا}[الأعراف ٧٠] قبيلة كانت تتسلَّم الصنم أبًا عن جد، أنت تنزع منّا هذا الشرف {وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ}[الأعراف ٧٠]، قرروا أنهم لن يتركوا أبدًا هذا الشيء.

مسألة الحسد والخوف على المُلك بسبب الدخول في الدين:

هذا هو الذي فتن اليهود؛ لذلك قال الله ﷻ لهم {وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ}[القرة ٤٣] اقبلوا أن تكونوا من ضمن الراكعين، لماذا تريدون الانفراد.

لذلك قالوا أيضًا {قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ}[الأنعام ١٢٤] المشركون قالوا في سورة الأنعام -كما ذكرنا من قبل في تفسير سورة الأنعام- أنهم يريدون معاملة خاصة حتى ندخل في الدين، وكانوا يقولون للنبي ﷺ اطرد هؤلاء، ويكون لنا معاملة خاصة في الدين، هذا أمر يرفضه الدين.

ماذا يفعل الداعية عند إصرار القوم علي الشرك؟

{فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ}[الأعراف ٧٠] عندما سمع منهم هذا الكلام وعلم إصرارهم على الشرك قال: {قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْس وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآء سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ}[الأعراف ٧١]

هذه الإجابة من نبي الله هود قال: {قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْس وَغَضَبٌ}[الأعراف ٧١] اختلف أهل العلم هل قد وقع بمعنى سيقع عليكم، وهذا مجاز عن المستقبل، أي: سيقع، سينزل عليكم وأنَّ الله ﷻ أعلم وأخبر نبي الله هود أنه سوف يُنزّل عليهم العذاب بسبب عنادهم؟

أو أنَّ هودًا عليه السلام عندما رأى هذا الإصرار تنبأ بنزول العذاب عليهم، وأنه لا يصل قوم إلى هذه المرحلة من العناد إلا وينزل عليهم العذاب؟

هل في هذه اللحظة قبل أن ينزل العذاب كلمة {وَقَعَ} على حقيقتها أنها فعل ماضٍ أم بمعنى المستقبل؟ أيضًا قالوا هذا قد يختلف على حسب معنى كلمة {رِجْس وَغَضَبٌ}

لو رجس معناه أمر معنوي؛ الرجس الفساد ويأتي من الرجز أيضًا والخُبث، فلو أنَّ المقصد الفساد والخُبث المعنوي فقال أن قد وقع بالفعل؛ فسدت فطرتكم.

أي إذا وقع بالفعل في الماضي فيخبرهم هود عليه السلام بهذه الكلمة وبهذا العناد يخبرهم أنه قد فسدت الفطرة! ونزل العقاب المعنوي عليكم، مُسِخت النفوس بسبب الإصرار على الشرك –والعياذ بالله– فيُخبرهم أنَّ الأمر انتهى {وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْس وَغَضَبٌ}[الأعراف ٧١] قضى الله ﷻ بنزول اللعنة عليكم، لكن ما زال العذاب لم ينزل، هذا مَن اختار أنَّ رجس وغضب معناه عذاب معنوي.

أما مَن سيختار أنَّ {رِجْس وَغَضَبٌ}[الأعراف ٧١] **عذاب مادي** فقال إنَّ "وقع" معناها سيقع لكن جاء بصيغة الماضي لتأكيد حدوثه، {قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْس وَغَضَبٌ}[الأعراف ٧١].

كيف كان الأنبياء يواجهون قضية الشرك؟

أمر مهم جدًا؛ نحن نقرأ قصص الأنبياء لنُطبّقها في حياتنا، حتى الذي يريد أن يعمل في الدعوة إلى الله ﷻ ينظر كيف كان الأنبياء يفعلون، حتى لو لم يستطع أن يفعل كما فعلوا تمامًا، يتأسى بهم في بعض أفعالهم أو حتى يُقيِّم خطأه ويعلم أنَّ دعوته ناقصة!

انظر كيف واجه هود عليه السلام قضية الشرك؟ ما الذي فعلوه حتى يصنعوا هذه الأصنام؟ أتوا بحجارة وسمّوها أسماء وفقط، لم ينزل شيء من السماء مثلًا!

أمر في قمة التفاهة كما في البخاري أبو رجاء العُطاردي يقول: (كنا في الجاهلية نعبد حجرًا، فإذا رأينا حجرًا أفضل منه ألقيناه وعبدنا الآخر)[٢] نحن نعبد حجرًا إذا وجدنا أفضل منه، نلقي القديم ونعبده.

لنفترض أننا في سفر ولا يوجد حجر ونريد آلهة! جمعنا -البخاري يقول هكذا- جمعنا جُثوة من تراب ثم حلبنا عليها الشاة ثم نطوف حوله!

أريدك أن تتخيل معي المشهد! تخيل أحدًا يمشي ومعه حجر، وجد حجرًا آخر، فألقى الأول وعبد الثاني، ضاع منه الثاني، أتى بجُثوة طين! عندما يقول لهم النبي ﷺ اتركوا الحجر! أنتم كنتم تتركونه لأتفه الأسباب، لا لن نتركه ويقاتلون لأجله.

إذًا القضية ليست من أجل الحجر، هو يترك الحجر لأتفه الأسباب أصلًا، لكن الحجر بالنسبة له هُنا رمز، **لن أقبل التوحيد**.

لذلك فيما يروى في السِيَر أنهم كانوا يقولون له: لو كانت كلمة لقُلناها، نحن نعلم معنى التوحيد، نحن عرب ولم نتعود الكذب ونحن نعلم معنى التوحيد، فلو كانت كلمة لقُلناها، نحن نعلم **تَبِعات** (لا إله إلا الله).

---

[٢] [عن مهدي بن ميمون:] سَمِعْتُ أبا رَجاءٍ العُطارِدِيَّ، يقولُ: كُنّا نَعْبُدُ الحَجَرَ، فإذا وجَدْنا حَجَرًا هو أخْيَرُ منه ألْقَيْناهُ، وأخَذْنا الآخَرَ، فإذا لَمْ نَجِدْ حَجَرًا جَمَعْنا جُثْوَةً مِن تُرابٍ، ثُمَّ جِئْنا بالشّاةِ فَحَلَبْناهُ عليه، ثُمَّ طُفْنا به، فَإذا دَخَلَ شَهْرُ رَجَبٍ قُلْنا: مُنَصِّلُ الأسِنَّةِ، فلا نَدَعُ رُمْحًا فيه حَدِيدَةٌ، ولا سَهْمًا فيه حَدِيدَةٌ، إلّا نَزَعْناهُ وألْقَيْناهُ شَهْرَ رَجَبٍ. وسَمِعْتُ أبا رَجاءٍ يقولُ: كُنْتُ يَومَ بُعِثَ النبيُّ ﷺ غُلامًا أرْعى الإبِلَ على أهْلِي، فَلَمّا سَمِعْنا بخُرُوجِهِ فَرَرْنا إلى النّارِ، إلى مُسَيْلِمَةَ الكَذّابِ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٤٣٧٦ • [صحيح]

نعلم مدى أن نتخلى عن الأصنام لأجلك لا لأجل أنفسنا، أنا ممكن أن أتخلى عن الصنم لنفسي أنا حر، هو صنم من العجوة! إذا أعجبني أأكل منه، وأُغيره، لا توجد مشكلة، نحن نضع الأصنام، نضع صنمًا مثلًا كالديمقراطية، نُغيّر فيه قليلًا، ليس مناسبًا لنا، نُغيّره بعد ذلك، نُضيف عليها، لكن أن تقول لي: لا؛ نحن نحاربك إذًا! كيف ترفض الديمقراطية! أنت كنت تتلاعب بها، أنا أتلاعب كما أشاء، أنا الذي وضعت الصنم! لكن معنى أنك ترفض الديمقراطية ستأتي لي بتشريع من عند الله وتجبرني عليه؛ لا!

القضية ليست حربًا، إنما هي قدسية أفكارهم، لايقبلون تغييرها لرفضهم توحيد الألوهية:

فلا بد أن نفقه أصل فكرة الشرك، القضية ليست حربًا؛ لذلك النبي ﷺ متى حطَّم الأصنام؟ وهذا من كمال دعوته ﷺ، لم يتعجَّل في تحطيم الأصنام، فمتى حطمها؟ في آخر شيء؛ فتح مكة! وكان مجرد الوكز لها تسقط الأصنام؛ لأنه حطَّم الأصنام التي في القلوب قبل أن يُحطِّم هذه الأحجار!

فمسألة أنهم يتعصبون لصنم فسيدنا هود يعود بهم للحقيقة، وأنها مجرد أسماء؛ أي أنه عندما يقوم بحرب عالمية لأن دولة ما رفضت الديمقراطية، أنتم تتصنعون! هذه أسماء أنتم سميتموها ما نزل الله بها من سلطان.

يضعون أسماء، ثم يضعون حولها هالة من القداسة حتى لا يقترب أحدٌ منها، هذه الأسماء هي توافق مصالحهم، فإذا اقترب أحدٌ من هذه الأسماء أظهروا شعار القداسة، ممنوع أن يقترب أحدٌ من صنم كذا أو مصطلح كذا، نحن وضعناه، لكن هو عندما يريد تغييره سيُغيره بكل سلاسة، اكتشف مثلًا أنَّ الاشتراكية ليست مناسبة فيقوم بتغييرها، الرأسمالية أو غير ذلك يفعل ما يشاء، إنما أن تحطم أنت هذا الصنم يرفض، وهو مجرد حجر قد يحطمه هو لأتفه الأسباب كما قلنا.

فأعادهم هود إلى المنطقة الأولى أننا نثبت أن هذه مجرد أسماء وهمية، أي صنم الآن يُعبد أو أي فكرة تُعبد؛ لأن القضية الآن أصبحت ((عبودية أفكار وليست عبودية أصنام))، وإن كانت الأصنام ستعود كما أخبر النبي ﷺ.

فقضية عبودية الأفكار نحن نهدم الفكرة من جذورها! نُثبت أنها مجرد فكرة لشخص بشر وضعها فقط نثبت هذا، حتى نثبت أنها مجرد اسم ليس لها قداسة، أي أنَّ هذه الكلمة الرائعة من هود عليه السلام: هي مجرد أسماء!

أي يريد أن يقول لهم هل تفهمون ماذا تفعلون؟ هل تفهمون لماذا تحاربون الله؟ خاصةً عندما يسمع عموم الناس هذا الخطاب؛ الملأ يعلمون أنها مجرد أسماء، لكن حينما يعيد عموم الناس للتفكير، فيقرون نحن لماذا نحارب من أجل الصنم وهذا الصنم لا يفعل لنا شيئًا؟

بعضهم قال كلمة {إن هي إلا أسماء}[النجم ٢٣]، سيدنا هود يقول لهم لقد ذكرت لكم ما فعل ربكم لكم؛ استخلفكم وأعطاكم النعم وستذكرون آلاء الله، هذه الأسماء ماذا فعلت لكم؟ أنا الآن عندما أتيت ودعوتكم قلت لكم ماذا فعل الله، أنتم تقولون الأصنام، هذه الأصنام ماذا فعلت لكم؟

{إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ}[النجم ٢٣] هي مجرد أسماء، أنتم أتيتم بالحجر ثم سميتم هذا الحجر، فلا بد أن نقوم بهدم هذه القداسة المصطنعة الوهمية حول كل الأصنام الفكرية المعاصرة.

أكرر: لا بد على الداعية أن يقوم **بهدم** هذه ((القداسة الوهمية المصطنعة)) حول كل الأصنام الفكرية المعاصرة، هناك قداسة وهالة توضع وهي مجرد اسم، واضعوها اختلفوا فيها أصلًا، وتناطحوا فيما بينهم في تعريف هذه الأصنام الموجودة الآن.

فدقة تعبير هود أنها مجرد أسماء لا واقع لها، لا حقيقة لها، أنتم وضعتموها {أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ}[الأعراف ٧١] أنتم اخترعتم هذا الدين ووضعتموه؛ لذلك كان الشيخ أحمد شاكر في عمدة التفسير في تعليقه على ابن كثير، كان يقول أيضًا إنَّ القوانين الوضعية تحاول أن تكتسب قداسة في نفوس الناس عن طريق تسميتها بأسماء الشرع، فيقولون: والواجب كذا، والشارع يقول كذا، يستعملون المصطلحات الشرعية حتى تستجلب أيضًا الهيبة في النفوس وتؤدي إلى وجود هيبة في نفوس الناس تجاه هذه الأمور الوضعية أو التشريع الوضعي الموجود، فهم يحاولون وضع هالة من القداسة.

دور الداعية {فاصدع}[الحجر ٩٤] الصدع هو الكسر، أن يصدع وأن يكسر هذه الهالة الوهمية المصطنعة.

{أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ}[الأعراف ٧١] ما أصل هذا الكلام؟ ما أصل هذا الصنم؟ ماذا كنتم تعبدون قبل أن يأتي هذا الصنم؟ من الذي وضع هذا الصنم وبأي حق وضعه؟ ولماذا فرضه عليكم؟ أسئلة لابد أن نسألها للمجتمع.

وبالرغم من هذا الغضب الذي كان بداخل هود -هذه نقطة هامة أيضًا- لم يدفعه لأن يتكلم بكلام لم يأمره الله به، فلم يقل لهم فانتظروا العذاب بعد ثلاث؛ لأن الله لم يقل له العذاب بعد ثلاث -بخلاف سيدنا صالح-، لم يقل لهم فانتظروا بركانًا ينفجر فيكم، فانتظروا نزول جبريل يعذبكم.

فقال: {فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ}[الأعراف ٧١]، أنا أيضًا لا أعلم ماذا الذي سيحدث، تخيل هذا الخطاب؛ حينما يقف هود في مشهد قوة -وتفصيل في هذا المشهد موجود في درس حول سورة هود- حينما يقف هود هذا الموقف ثم يقولون له ماذا ستفعل؟ **يقول لا أعلم أنا مجرد رسول.**

لا ينبغي على الداعية أن يغضب ويتعدّى ما أمره الله به، {قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ}[الأنعام ٥٨] لكن ليس عندي فأنا بشر، أنا رسول لا أتجاوز أمر الله {فَٱنتَظِرُوٓاْ}[الأعراف ٧١] وأنا أيضًا منتظر أوامر الله ﷻ.

هذه الكلمة قد يسخر منها أهل الكفر، لكن هي علامة من علامات وقوف نبي الله هود عند حدود الله، لم يأتِ إليّ فيكم شيء، فأنا مجرد رسول أُبلغكم وأنصح لكم فقط وأُنذركم.

حين آمن من آمن وأستمر من تكبر في كفره، جاء الله بالبشرى والعذاب:

{فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ * فَأَنجَيۡنَٰهُ}[الأعراف ٧١-٧٢] أي: فأتاهم العذاب فأنجيناه، كما سبق وذكرنا قدَّم الله ﷻ النجاة على نزول العذاب؛ بشرى لأهل الإيمان.

{فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا}[الأعراف ٧٢] بعض العلماء قال (الباء) هُنا للملابسة والمصاحبة، أي: صاحبتهم الرحمة أثناء نزول العذاب، وحتى بعد أن نجّاهم الله -عزَّ وجل-، عاشوا في رحمات من الله -عزَّ وجل-.

{بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ}[الأعراف ٧٢] أيضًا وصف {ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ} أكثر سورة تكررت فيها كلمة آيات هي سورة الأعراف، فسبب نزول العذاب أنهم كذبوا بآياتنا {وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ}[الأعراف ٧٢] هؤلاء أغلقوا باب الإيمان، لم يكن بهم أمل.

ننتقل للحديث عن قصة سيدنا صالح مع قومه:

{وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ}[الأعراف ٧٣] قوم ثمود كانوا بعد قوم عاد وعاشوا بين الحجاز والشام شمال قوم عاد، وعَلِموا ما نزل بقوم عاد، {وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ}[الأعراف ٧٣] أيضًا أرسل الله ﷻ إليهم صالحًا، وكان منهم أيضًا، كلمة {أَخَاهُمۡ} نفس المعنى في {وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ}[الأعراف ٦٥].

{قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ}[الأعراف ٧٣] أيضًا نفس دعوة التوحيد؛ البداية الواضحة الصريحة.

{قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ}[الأعراف ٧٣] هُنا **أول مرة تأتي بينة واضحة حِسيَّة** في سياق قَصص القرآن، إذا لاحظتم؛ مَن سيقرأ المصحف من أول سورة البقرة حتى يصل إلى سورة الأعراف، سورة الأعراف أول سورة في المصحف بدأت تقُص علينا قَصص الأنبياء بالتفصيل، لذلك مَن سيعود إلى التفاسير، سيجد في هذه المواطن استفاضة طويلة جدًا في شرح قَصص الأنبياء؛ لأن هذه أول سورة ستقابلك وتشرح لك قَصص الأنبياء بهذا التفصيل.

تقرأ قصة نوح ثم هود ثم صالح ثم لوط ثم شعيب ثم موسى عليه السلام بنفس الترتيب الزمني، فهناك استفاضة في شرح هذه القصص في التفاسير، وأيضًا هذه أول مرة يقابلك نبي جاء بآية واضحة حسية، هذا لا يمنع وجود آيات وبينات عند السابقين أيًّا كان نعرفه أو لا نعرفه.

فهُنا أضاف صالح مباشرة أنَّ معه بينة، وكان بعض أهل العلم يقول إنَّ سيدنا صالح كان فيه رقة، وقوم عاد كانوا متجبرين وعُتاة، فأتاهم هود عليه السلام وواجههم بقوة، أما دعوة صالح كان فيها رقة؛ لذلك أرادوا استمالته {قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآ}[هود ٦٢] أما قوم عاد حينما تعاملوا مع هود عليه السلام هددوه وقالوا: {إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ}[هود ٥٤] فواجههم هود.

فكأن أهل الباطل يدرسون شخصية الداعية، يدخلون لداعيةٍ ما من المواجهة، ولداعية آخر من الملاينة والمداهنة، وفي كل الأحوال ثبت الأنبياء، ولكن الدعاة ليسوا معصومون.

طريقة دعوة سيدنا صالح مختلفة لأن معه بينة ملموسة، فكيف كانت؟

{قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ}[الأعراف ٧٣] فبدأ بطرح البينة {قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ}[الأعراف ٧٣] بعض أهل العلم قال هُم طلبوا البينة أولًا فأتتهم هذه البينة {قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ} (هذه) اسم إشارة للقريب، أمامنا واضحة {هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ}[الأعراف ٧٣].

العلماء اختلفوا لماذا الناقة آية؟ سيدنا صالح أشار إلى الناقة، لماذا الناقة كانت آية؟ وهل هم مَن طلبوها أم أتى بها صالح عليه السلام ابتداءً؟ جمهور المفسرين قالوا هم مَن طلبوا، قال إنه يدعوهم إلى التوحيد فقالوا نطلب منك آية حسية يراها الجميع فإذا رأيناها آمنا بك، فأخرج لهم الناقة بأمر من الله ﷻ.

وبعض أهل العلم قال الناقة آية -وهذا الأمر ليس مذكورًا صريحًا في القرآن- وأنها خرجت من الحجارة من جبل، تمخَّض الجبل وأخرج هذه الناقة فكانت آية الناقة أنها خرجت بغير أب وأم بغير وجود فحل لها فجاءت مباشرة من الصخر، فكانت هذه الآية ورأوا ذلك بأمِّ أعينهم. وبعضهم قال الآية أنها كانت تشرب الماء يومًا كاملًا بمفردها وأنها تنهي الماء تمامًا ثم حينما تنهيه؛ تعطي لبنًا يكفي القبيلة بأكملها، القوم بأجمعهم يشربون من لبنها يومًا ثم يومًا آخر تترك لهم الماء ولا تعطيهم اللبن، فكانت آية أيضًا حسية. وبعضهم جمع وقال هذه وهذه.

أيًّا كان فهي كانت **آية حسية صريحة لا يماري فيها أحد**، أي أنهم لم يقولوا بعد خروجها نحن نشكك بها، لا، هي كانت آية صريحة لهم؛ لذلك عمدوا إلى قتلها، لو كانت لديهم شبهات ضد الناقة وأنها ليست آية حسية واضحة كانوا قالوها.

فعندما كانت لدى فرعون شبهة ضد العصا قال هذا سحر وأنا سآتي بسحر مثله، هم لم يستطيعوا أن يفعلوا هذا، فيقولون نحن لا نستطيع أن نفعل مثل هذه الناقة.

{قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً} [الأعراف ٧٣]، ومنسوبة إلى الله تشريفًا، جاءت بأمر من الله وبقدرته ﷻ فنُسبت إليه.

{هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ} [الأعراف ٧٣] كلمة أرض الله كلمة تجعل الإنسان يستيقظ! ويفيق على الحقيقة التي ينساها؛ أنه يعيش في أرض الله يأكل من رزقه، يستعمل النعم التي أعطاها له الله ﷻ، فلماذا تواجهون الناقة لماذا تريدون قتلها؟ هي في أرضه تأكل من رزقه وأنتم أيضًا كذلك.

أي أنه عندما تذهب تتحدث مع أحد يعصي الله في أرض الله، هو يعصي الله ﷻ في مُلكه، فتقول اتقِ الله، أنت تعصي الله في أرضه، حينما يتذكر الإنسان هذه الحقائق هو أولًا يخشى الله، يخشى أن يعصيه، وفي نفس الوقت حين يدعو الناس يكون عنده قوة، ماذا تفعلون على أرضه؟ إنها أرض الله ﷻ.

{فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ} [الأعراف ٧٣] فيترتب مباشرةً بعد قتلها {فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الأعراف ٧٣] توقع صالح أنهم سوف يقتلوا الناقة، لماذا من البداية قال لهم لا تقربوا الناقة إلا إذا كان مرتابًا في ذلك؟ -سنتكلم لماذا ارتاب صالح في ذلك ولماذا عقروا الناقة سنتحدث في خلاف العلماء في لماذا عقروا الناقة-.

استخدام آيات الله في دعوة عباد الله:

ثم أكمل دعوته وقال: {وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ} [الأعراف ٧٤] **كل نبي يُذكِّر قومه بالأقوام السابقين.**

{وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ} [الأعراف ٧٤] أسكنكم في الأرض.

{تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا} [الأعراف ٧٤] فالعلماء قالوا هم كانوا يعيشون في السهول أم في الجبال؟ قالوا كانوا في الشتاء يعيشون في الجبال وفي الصيف في السهول، فقال صالح

عليه السلام: {تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتاً}[الأعراف ٧٤] مسألة القدرة الرهيبة التي أعطاها الله ﷻ لهم، هذه النعمة العظيمة لهم، ينحتون من الجبال بيوتًا!

انظر أنت لكي تقوم ببناء بيت تذهب وتسافر وتعمل، أما هو هذا الجبل أعجبه فيدخل يحفر فيه {يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا}[الأعراف ٧٤] تخيل حوَّل الجبل إلى بيت وغرف كثيرة! انظر هذه القدرة، وفي السهول يجلس في السهل يبني قصرًا على السهول.

حسنًا، لكن لماذا كانوا ينحتون من الجبال بيوتًا؟ بعض أهل العلم قال -أو كثير منهم؛ لأنها وردت في إسرائيليات- قال: لطول أجسادهم وطول أعمارهم كان يسقط البيت وهو الرجل مازال كما هو! فيذهب للجبل، هو الذي يبقى ولا يسقط.

لماذا تركوا القرى واتجهوا للجبال؟

لكن أظن والله أعلى وأعلم وما أقوله كان إشارة من قوله ﷻ: {وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ}[الحجر ٨٢] في سورة الحجر، و{فَرِهِينَ}[الشعراء ١٤٩] في سورة الشعراء، وكل كلمة ناسبت معنى السورة، الحجر فيها لفظ الحفظ والأمن كثيرًا؛ الإنسان يبحث عن الحفظ، وقال الله أيضًا في سورة الحجر: {لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَب}[الحجر ٤٨]، سورة الشعراء واستعمال الرفاهية لأجل الإعلام وكانوا يبنون {بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَة}[الشعراء ١٢٨] فكانت {فَرِهِينَ}[الشعراء ١٤٩] مناسبة لجو الشعراء، أما {يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ}[الحجر ٨٢] آمنين من ماذا؟

عندما أُهلك قوم عاد بالريح الصرصر العاتية سخّرها الله ﷻ عليهم أيامًا وليالي، فأرادوا أن يعيشوا في أمان من نوائب الدهر، وكان الله ﷻ قد أعطاهم القدرة على ذلك، فكانوا يريدون الأمن كما قال رَبُّنا: {يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ}[الحجر ٨٢] فكانوا يريدون بحثًا عن الأمن ويعيشون في الجبال؛ لذلك في وقت الشتاء -وجمهور المفسرين قال هذا القول- أنهم في الشتاء كانوا يجلسون في الجبال أمنًا لهم، فاعتقدوا أنَّ الإنسان يستطيع أن يبتعد عن عذاب الله ﷻ بأسباب الدنيا فجاءهم العذاب الصيحة ليس الريح ورجفة وزلزلة -كما سنتكلم في عذابهم الآن-.

أما الذين قالوا {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً}[فصلت ١٥] أهلكهم الله بهواء! تخيل قالوا مَن أقوى منا، فجاء هواء أهلكهم، {وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً}[فصلت ١٥] فأهلكهم الله بالريح قوم عاد، هؤلاء اتقوا الريح فجاءهم العذاب من حيث لا يحتسبون، فهذا ظني والله أعلى وأعلم في مسألة لماذا ينحتون من الجبال بيوتًا.

إنما غالب المفسرين كما قلت ذكر أنه كان عمره يطول وكانوا أجسادًا طويلة فأدّى ذلك إلى أنهم يريدون بيتًا لا يبلى فذهبوا إلى الجبال وكان عندهم القدرة على ذلك من تقدير الله لهم.

{تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتاً فَٱذْكُرُوۤاْ ءَالآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلأَرْضِ مُفْسِدِينَ}[الأعراف ٧٤] أضاف إلى كلمة (آلاء) الله الذي قالها هود هُنا أيضًا؛ لأنه كانت لديهم قوة زائدة، فقال: {وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلأَرْضِ مُفْسِدِينَ}[الأعراف ٧٤] أيضًا مباشرة مَن الذي رد؟

الملأ {قَالَ ٱلْمَلأُ} هُنا يوجد زيادة {ٱلْمَلأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ}[الأعراف ٧٥].

نحن قلنا في البداية؛ الملأ فقط، ثم الملأ الذين كفروا، ثم الملأ الذين استكبروا، الاستكبار أعلى من الكفر؛ لأنهم كفار أصلًا فأضافوا إلى الكفر الاستكبار، قد يكون كافرًا لكن لا يتكبر، لكن هؤلاء استكبروا على المستضعفين؛ لذلك عندما جاء لفظ {ٱسْتَكْبَرُواْ} جاء مقابلًا له {لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ}؛ {قَالَ ٱلْمَلأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ}[الأعراف ٧٥].

لاحظ رد قوم صالح علي دعوته واختلافهم عن غيرهم:

هناك ملاحظة أنَّ أول مرة هُنا الخطاب لا يكون مع النبي، أي أنَّ سيدنا نوح عندما كلمهم قالوا: {إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ}[الأعراف ٦٠] سيدنا هود عندما كلمهم قالوا: {إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ}[الأعراف ٦٦] فكان متوقع أن يكلموا سيدنا صالح، إذًا لماذا لم يُكلموه؟ هُنا كلّموا الأتْباع مباشرةً، كلموا المستضعفين المؤمنين.

خطاب صالح عليه السلام بوضوحه مع الناقة البينة جعلهم لم يستطيعوا أن يقولوا شيئًا لسيدنا صالح، فنتجه إلى الأتْباع إذًا، وكأن هذا هو دأب أهل الباطل دائمًا؛ في البداية يتهمون الداعية في

شخصه أنه ضال، إذا لم يستطيعوا أن يثبتوها؛ نتهمه بأن لديه مشكلة في الأخلاق، في العقل، أنه في سفاهة، إذا لم يستطيعوا أن يثبتوها؛ إذًا نتجه إلى الأتْباع، أنهينا الشخص هكذا.

كما حاول المشركون مع النبي ﷺ يتهمونه اتهامات كثيرة، فشلوا ثم اتهموه في زوجته المبرَّأة عائشة – رضي الله عنها– مُبرَّأة من فوق سبع سماوات، إذًا من الممكن أن يدخلوا من مدخل الأهل، ثم الصديق، ثم الأتباع؛ يحاولون أن يدخلوا من أي مدخل يهدم الدعوة.

فهُنا اتجهوا مباشرةً للمستضعفين {قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ}[الأعراف ٧٥]، {مِنۡهُمۡ} فيها خلاف، إذا أردنا أن نزيل الضمير (هم) ونضع اسمًا ظاهرًا ماذا سنضع؟ {قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ}[الأعراف ٧٥] أي: لمَنْ آمن من قومه؟ أم لمَنْ آمن من المستضعفين؟

الذي قال لمَنْ آمن من قومه؛ إذًا كل المؤمنين مستضعفين؛ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن من قومه.

فكأن قومه انقسموا إلى نصفين:

- كفار مستكبرون.
- ومؤمنون ضعفاء.

والذي قال للذين استضعفوا لمَنْ آمن من المستضعفين قال ليس كل من استُضعف آمن، فذهبوا حدثوا الجزء المؤمن من المستضعفين، الملأ الذين استكبروا اتجهوا بالخطاب للمستضعفين.

إذًا مَنْ مِن المستضعفين؟ هل كل القوم المؤمنين كانوا مستضعفين؟ أم المستضعفون كانوا نصفين؛ نصف أذعن وأطاع القادة وأعرض عن صالح وخاف من المستكبرين، ونصف أجاب دعوة صالح عليه السلام وكان مستضعفًا؟ فبعضهم قال إنه كان هناك جزء مستضعف مؤمن، وجزء مستضعف كافر.

فهم ذهبوا **للجزء المستضعف المؤمن** الذي لا يوجد له عُدّة ولا عتاد ولا دنيا، ذهبوا ليضغطوا عليهم، ويسألونهم سؤالاً؛ {أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ}[الأعراف ٧٥] يريدون معرفة مدى إيمانهم، هل إيمانهم مُهتَز قابل لأن يتم الضغط عليهم؟ بعض العلماء قال إنَّ كلمة {أَتَعۡلَمُونَ}[الأعراف

٧٥] ليست مجرد سؤال عن الإيمان؛ لا بل أتعلمون هذه أي ءأنتم موقنون أم تظنُّون ظنًّا؟ الذي أنتم عليه من الإيمان هذا علم يقيني؟ أم أنكم سمعتم هذا الكلام وفقط وأنتم لا تفهمون شيئًا؟ مثل: {بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ}[هود ٢٧].

يسأل دائمًا أهل الباطل سؤال تشكيك متضمن للاجابة التي يريدها، لا سؤال تقرير:

{أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ}[الأعراف ٧٥] نحن تكلمنا قبل ذلك أظن في ثاني درس في مسألة أنَّ هذا السؤال مُتوقع أن تكون إجابته بنعم أو لا؛ {أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ}[الأعراف ٧٥] كان من الممكن أن يقولوا: نعم نعلم أنَّ صالحًا مُرسَل من ربه، أو أن يقولوا لا إذا هم كفروا – والعياذ بالله–. فالإجابة لأنهم كانوا مؤمنين مُتوقَع أن يقولوا نعم نعلم أنَّ صالحًا مُرسَل من ربه؛ لكن عندما علموا غرضهم وأنهم يريدون أن يُزعزعوا إيمانهم؛ المستكبرون هُنا لا يسألون سؤالًا عاديًا، هؤلاء يقومون بزعزعة إيمان المستضعفين، فأرادوا أن يثبتوا أنَّ إيمانهم قوي، وأنَّه غير قابل للزعزعة، نحن لسنا فقط نعلم أنه مُرسَل، نحن نعلم أنه مُرسَل وآمنا بكل ما جاء به، فعندما أجابوا قالوا {إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ}[الأعراف ٧٥] نحن سنتجاوز مسألة هو رسول أم لا، هذا أمر منتهٍ عندنا، بالطبع هو رسول.

إجابة أهل الحق يجب أن تكون واضحة وصريحة لا ريب فيها:

{إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ}[الأعراف ٧٥] كما يروى عن الصديق عندما جاءوا يطعنون في كلام النبي ﷺ في الإسراء، فقال أُصدقه فيما هو أعلى من ذلك، الإسراء والمعراج هذا شيء عادي، أنا أُصدقه فيما هو أبعد من ذلك.

ثبات أهل الحق يلجلج أهل الباطل:

فيأتي الإنسان أحيانًا يريد أن يقوم بنوع من البلبلة، يرى مدى عقيدتك مثلًا أو يرى مدى بُعدك عن معصية معينة فأنت تثبت له أنك قد تخطَّيت هذه المنطقة منذ زمن.

فقالوا: {إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ}[الأعراف ٧٥] عندما وجد المستكبرون أنَّ المستضعفين هكذا، أرادوا أيضًا أن يثبتوا أنهم على نفس الثبات فقالوا: {إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ}[الأعراف ٧٦] وهذا من العناد، انظر كيف يؤدي العناد إلى الكفر، لم يقولوا: إنا بما أرسل به كافرون، مع أنَّ محور الكلام عن الرسالة، ونحن قلنا أصلًا من محاور الكلام في سورة الأعراف؛ قضية الرسالة وإرسال الرسل ومنذ أول آية:

{كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ}[الأعراف ٢]، {فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ}[الأعراف ٦]، {كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا} ذكرت في أكثر من موضع[٣]

قضية الآيات والرسالة والرُسل، فلم يقل الكفار: إنا بالذي أرسل به كافرون، بعضهم قال لأنه كان من الممكن أن يُفهَم من كلام الكفار لو قالوا: "إنا بما أرسل به كافرون" أنهم يثبتون رسالته بأنه رسول لكن ليسوا بمؤمنين بالذي يأتي به، كان من الممكن أن يفهم بعض المستضعفين هكذا.

إذا قال أحد إنه بما جاء به الرسول كافر، فقد يعترف أنه رسول لكنه لا يريد أن يؤمن، لكن حينما يقول هو لم يأتِ بشيء، يريد أن ينفي الأصل، فالكفار قالوا أي شيء أنتم آمنتم به نحن به كافرون، وأيضًا بصيغة التأكيد {إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ}[الأعراف ٧٦].

هُنا نريد أن نلاحظ شيئًا؛ سيدنا صالح تكلّم معهم وقال لهم اعبدوا الله، وهناك آية وهي الناقة واذكروا النعم، فكان المتوقع إما أن يردّوا عليه أو يقوموا بعقر الناقة لكن حدث فاصل،

فهذا الفاصل ما الذي حدث فيه؟

لكي نفهم لماذا عقروا الناقة ولماذا جاء بعد هذا الرد مباشرةً {فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ}[الأعراف ٧٧]، الملأ المستكبرون من قوم صالح وقعوا في مشكلة أنَّ الرسالة البينة التي مع سيدنا صالح تسير أمام أعينهم كل يوم، طلبوا بينة فتسير البينة –الناقة– أمامهم كل يوم، ويوم تعطيهم اللبن ويوم لا تعطيهم، فالآية

---

[٣] ١. وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿الأعراف: ٣٦﴾
٢. إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿الأعراف: ٤٠﴾
٣. فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿الأعراف: ٦٤﴾
٤. فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿الأعراف: ٧٢﴾
٥. فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿الأعراف: ١٣٦﴾
٦. سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿الأعراف: ١٤٦﴾
٧. وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿الأعراف: ١٤٧﴾
٨. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿الأعراف: ١٧٦﴾
٩. سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿الأعراف: ١٧٧﴾
١٠. وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿الأعراف: ١٨٢﴾

متجددة أمامهم فكلما حاولوا خداع الأتباع، وعندما يجدون أنَّ كلامهم سيؤثر في الأتباع؛ فيرى الأتباع الناقة تسير أمامهم فيقولون نحن سنُصدق سيدنا صالح.

فينشر الكفار شهوات ومشاكل وبرامج وأفكار وتخويف وضغط أمني، فالمستضعفون يتّبعوا المستكبرين، ثم يأتون اليوم الذي يليه يرون الناقة يقولون لا نحن سنُصدق سيدنا صالح.

إذًا؛ طالما أنَّ الآية موجودة؛ هو لا يستطيع أن يفعل شيئًا! فالحل في أن يفعل ماذا؟ أقتل الآية! أزيلها من أمام الناس، طالما أنَّ الداعية يُذكِّر الناس بالقرآن والآية موجودة؛ لذلك المشركين في عهد النبي ﷺ كانت مشكلتهم في قراءة القرآن فطالما أنَّ الآية تُتلى؛ هم لا يتحمّلون.

سيدنا أبو بكر انعزل عن الناس وفي فناء داره يقرأ القرآن لكن بصوتٍ عالٍ أغضب ذلك قريشًا! كان نساء المشركين والأطفال منبهرين بقراءة أبي بكر، وكان رجلًا أسيفًا فقالوا لا امنعوه! طالما أنَّ الآية تُقرَأ ومستمرة على أذهان وأسماع وأبصار الناس؛ هذا يجعلهم يعيدون التفكير مرة تلو أخرى، فلا يقع في شباك هؤلاء الملأ.

فكان الحل أن يقتلوا الناقة، الحل أن يمنعوا الآية؛ لذلك في سورة البروج عندما قتلوا المؤمنين في آخر السورة؛ {هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ * فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ} [البروج ١٧-١٨] لماذا ربط بين الاثنين؟ لأن فرعون أراد قتل موسى الذي معه الآية، وثمود قتلوا الناقة الآية نفسها، فأكبر وسيلتين يحاولون أن يهدموا بهما الدين:

- قتل صاحب الآية أو الذي معه الآية.
- أو الآية نفسها.

هم لهم طريقتان:

- شبهات ضد القرآن.
- وشبهات ضد حامل القرآن.

يعمل على المنهج وعلى حامل المنهج، فالمنهج محفوظ وهو القرآن؛ لذلك قال الله لهم في آخر سورة البروج: {بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ * فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ}[البروج ٢١-٢٢] لن تستطيعوا أن تفعلوا شيئًا مهما قتلتم من حاملي المنهج سوف يخرج غيرهم!

{فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ}[الأعراف ٧٧] لأنهم لم يستطيعوا أن يتحملوا وجود الآية مُذَكِّرة أمامهم، لم يستطيعوا أن يتكلموا؛ أي أنهم قالوا نحن سنترك الناقة لن نقتلها، لكن سنعمل على المستضعفين، فذهبوا للمستضعفين وجدوهم في قمة إيمانهم، إذًا ماذا بعد؟ نحن هكذا وجودنا في مركز الملأ يهدده الخطر، وظيفة الملأ ستُسحب من تحت أرجلنا، ماذا نفعل! نحن عندما نُكلّم الناس يقولون هذه الناقة آية، إذًا نحن نقتل الناقة ونثبت أنها ليست آية! انظر كيف يمكن أن يؤدي به التفكير إلى حتفه! {فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ}[النمل ٥١] ليس مكر الله ﷻ، بل مكرهم، هم الذين دمّروا أنفسهم بمكرهم.

{فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ}[الأعراف ٧٧] بعض أهل العلم قال هم عقروا الناقة لأجل هذا السبب؛ لم يتحملوا وجود آية مُذَكِّرة للناس أمام أعينهم، وبعضهم قال -وهؤلاء قلة وأيضًا مذكورة في الإسرائيليات-: إنَّ الناقة كانت تؤذيهم في أموالهم وسبّبت لهم أزمات اقتصادية بسبب أنها تسقي اللبن يومًا كاملًا والدواب التي كانت ترعى حول الناقة كانت تخاف من هذه الناقة فابتعدت عنهم فأثَّر ذلك في أموالهم، فقالوا إنهم حاولوا قتل الناقة بسبب أنها أضرّت بأموالهم، أي أنه سبب اقتصادي.

وقد يكون لكلا السببين: السبب هذا والسبب الأصلي أنها مُذَكِّرة، آية بيِّنة واضحة للناس، فالملأ يخسرون وظيفتهم خاصةً أنهم طلبوا آية -على قول أنهم هم الذين طلبوا الآية- الآية موجودة لماذا لم تؤمنوا؟! لذلك كما قلنا قوم صالح هُنا لم يجادلوا سيدنا صالح! لم يستطيعوا أن يقولوا شيئًا، الخطاب واضح صريح، آية بيِّنة مبصرة أمامهم، ماذا سيقولون!

فاتجهوا إلى المستضعفين، فلما فشلوا قالوا إنَّ الحل الوحيد الذي أمامنا إما أن نؤمن أو أن نقتل الناقة، فاختاروا الكفر {فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ}[الأعراف ٧٧].

في غياب وضوع الآيات يتكلم أهل الضلال :

{وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ} [الأعراف ٧٧] عندما قتلوا الناقة استطاعوا أن يتكلموا مع سيدنا صالح، طالما كانت البينة موجودة لم يستطيعوا أن يتكلموا، في البداية عندما كان يدعوهم سيدنا صالح وكانت الآية بيِّنة؛ لم يتكلم أحد معه عليه السلام، عندما عقروا الناقة قالوا يا صالح! نحن قتلنا الناقة {ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ} [الأعراف ٧٧]

بدأوا بالتشكيك في رسالته {فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ} [الأعراف ٧٧] -والعياذ بالله- قمة العُتو والاستكبار وهم يقتلون الناقة، عتو، فجور، يقول لهم ناقة الله وفي أرض الله وآية أنتم طلبتموها ثم تقتلونها! {فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ} [الأعراف ٧٧] وخاطبوه باسمه هكذا {يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ} [الأعراف ٧٧] هذا فَهم خاطئ؛ ليست كل معصية ينزل عليها عقاب فوري لا سيما في آخر الأمم أمة محمد ﷺ.

أيضًا فَهم خاطئ أن يعتقدوا أنَّ النبي هو الذي يملك إنزال العذاب، نحن مازلنا نقول: {لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ} [الأنعام ٥٨]، {فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ} [الأعراف ٧١].

فهُنا يوجد نوعان من الفَهم الخاطئ:

- أنهم يعتقدون أنَّ أي معصية تستوجب نزول العذاب الفوري، لكن هُنا نزول العذاب؛ لأنه توعدهم؛ لو قتلتم الناقة سوف يمسّكم العذاب، فهذا وعيد خاص لهم.

- أنهم يعتقدون أنَّ هذا بيد صالح {ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ} [الأعراف ٧٧-٧٨].

ورد في أكثر من سورة أنَّ العذاب جاء بأسماء مختلفة؛ جاء الرجفة، الصيحة، الصاعقة، وصاعقة العذاب الأولى، وأيضًا {فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ} [الحاقة ٥] وعاد {فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ} [الحاقة ٦].

التعبيرات الأربع: الصيحة، الرجفة، الصاعقة، الطاغية، بعضهم جمع وقال إنَّ الأصل هي الصاعقة، الصاعقة سبّبت صوتًا كصوت الرعد، صوت عظيم جدًا جعل قلوبهم ترجف فسُميت بالرجفة، وهذه الصاعقة زلزلت الأرض وزلزلت الجبال؛ لأنهم كانوا يعيشون في الجبال فرجفت بهم الأرض ليس فقط

رجفت قلوبهم، فبعضهم قال الرجفة هي الزلزلة {فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ} [الأعراف ٧٨] فبعضهم قال هي الزلزلة وأنَّ العقاب كان نوعين: عقاب من السماء وعقاب من الأرض؛ عقاب من السماء كان الصاعقة، وعقاب الأرض كان الزلزلة، بعض المفسرين قال الزلزلة كانت نتيجة لقوة الصوت! أيًّا كان، فقد كان عقابًا من السماء وعقابًا من الأرض.

الصيحة، والصيحة صوت مع الصاعقة، فالصيحة والصاعقة مرتبطتان ببعضهما، والرجفة إما عذاب آخر أو أثر من الصيحة. إذًا عوقبوا بشيئين؛ الصاعقة من السماء والصاعقة هي التي تسبّبت في صوت الصيحة ومعها زلزلة، أو أنَّ الزلزلة أثر للصيحة.

والطاغية ما معناها؟ قالوا الطاغية أي: الزلزلة التي تجاوزت الحد، وبعضهم قال: {بِٱلطَّاغِيَةِ} [الحاقة ٥] أنَّ الباء هناك ليست باء الآلة، إذا كانت باء الآلة؛ أي أنهم أُهلكوا بآلة الإهلاك وهي الصاعقة.

وبعضهم قال إنها ليست باء الآلة هذه باء السبب ماذا يعني؟! أُهلكوا بسبب الطاغية، إذًا الطاغية هو قُدار بن سالف الذي عقر الناقة.

فبعضهم قال إنَّ الباء باء السبب {فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ} [الحاقة ٥] أي: أُهلكوا بسبب وجود الطاغية وأنهم لم ينهوه؛ لذلك لماذا نزل عليهم العذاب؟ ولماذا قال الله {فَعَقَرُواْ} [الأعراف ٧٧] بالرغم أنَّ الذي عقر الناقة شخص واحد –الذي هو مروي في الآثار أنه قُدار بن سالف، رجل منيع زعيم في قومه قام وعقر الناقة–؟ لأنهم رضوا بذلك، بل في بعض الآثار المروية في الإسرائيليات أنهم مروا على كل الديار حتى المرأة في بيتها يسألونها، يأخذون الموافقة بأن يقتلوا الناقة، وقال الله ﷻ {فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ} [القمر ٢٩] هم الذين نادوه {فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ} [القمر ٢٩] ظلّوا يتساءلون مَن الذي سيقتلها، فهو الذي تقدَّم وقال أنا أقتلها، أي أنه كان هناك اتفاق ورضا من الجميع على ذلك.

فلذلك جاء العذاب عامًا وهذه من أسباب نزول العذاب العام؛ أن يفعل المعصية أحد الناس والباقي لا ينكر عليه، هناك أسباب لعموم العذاب موجودة في القرآن والسنة، منها أنه من الممكن أن تستوجب المعصية العذاب بالرغم من أنَّ الذي قام بها لا يُخَّص بالعذاب.

لماذا جاء العذاب عامًا بالرغم أنَّ مَن قام بها شخص واحد فقط؟ لأن البقية رضوا بذلك ولم ينكروا عليه.

تكبر قومه علي دعوته وقتلوا آيته وبدأوا يستخفون بالعذاب

{فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ}[الأعراف ٧٧-٧٨]

الجثم؛ بعضهم قال إنها الدابة عندما تُربَط وتُرمَى تأكلها الفريسة، أو تموت لا تستطيع أن تتحرك، أو الأرنب الخائف الملتصق بالأرض، فأيًّا كان الجاثمين؛ منظر الجثث ملقاة على الأرض لا تتحرك، سواء خوفًا قبل العذاب، أو جثث مُلقاة بعد العذاب متراكمة على بعضها البعض {فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ}[الأعراف ٧٨] هذه الدار التي كانت لهم أمانًا الآن أصبحوا فيها جاثمين.

{فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ}[الأعراف ٧٩] أي: صالح عليه السلام انصرف عنهم {وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ}[الأعراف ٧٩] بعض العلماء قال إنَّ هذا الخطاب كان قبل نزول العذاب، وقال إنَّ ترتيب الآيات؛ {وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ}[الأعراف ٧٧]، {فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ}[الأعراف ٧٩]، وبعد ذلك {فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ}[الأعراف ٧٨].

أي أنَّ بعضهم يقول إنَّ آية سبعة وثمانون هي آية معترضة بين، الآيتين وإنَّ ترتيب الأحداث في الآيات كان آية سبعة وسبعون، بعدها تسعة وسبعون، بعدها ثمانية وسبعون، هذا ترتيب الاحداث لكن قُدّم ذلك – وهذا من تقديم ما حقه التأخير–، وأنَّ الله ﷻ ذكر العقوبة مُعجَّلة لكي يُعلمنا أنهم استحقوا العذاب الفوري مباشرة، فقال إنَّ سيدنا صالح قال لهم هذا الكلام وهم على قيد الحياة وسمعوه منه {وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ}[الأعراف ٧٩] عندما أصروا وعقروا الناقة قال لهم أنا قمت بواجبي {أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ}[الأعراف ٧٩] هذا قول البعض.

وبعض أهل العلم قال هذا أشبه بخطاب النبي ﷺ بقتلى بدر بعدما ماتوا يُحسِّرهم ويُبكّتهم وهم يسمعونه، فكان خطاب أنه فعل ما بوسعه لكنهم هم الذين رفضوا! فبعضهم قال هذا الخطاب بعدما ماتوا {وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي}[الأعراف ٧٩] فبعضهم قال إنه تحسُّر، وبعضهم قال لا لم يتحسَّر عليهم؛ لأنه فعل ما بوسعه وأنهم أصروا وما بكت عليهم السماء والأرض، لا يستحقون أن يحزن الإنسان عليهم؛ لأن صالحًا عليه السلام فعل ما بوسعه وكانت الناقة واضحة بيِّنة أمامهم، هم طلبوها وأتاهم الله بها.

المؤمن يجب أن يهذب نفسه علي تقبل النصيحة:

{وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ}[الأعراف ٧٩] مسألة {لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ} مسألة خطيرة جدًا؛ **أن يكره الإنسان أن يُنصَح!** مسألة **لا بد للإنسان أن يُقوِّمها في نفسه**، النفس البشرية قد ترفض ذلك، لا أحد يحب أن يقول له شخص أنت على خطأ!

النفس بطبيعتها ترفض ذلك، لكن حينما يصل الإصرار بأن يصل العند إلى الكفر وقتل للآية؛ قتل وعقر الناقة، هو يرفض النصح في كل ذلك، فهو يستوجب العذاب.

إذًا، لا ينبغي أن يقول أحد أنا طبيعتي هكذا ولا أحب النصح، رفض النصح مطلقًا قد يؤدي بالإنسان -والعياذ بالله- أن يصل لهذه المرتبة من الضلال.

والأخطر من ذلك أن يشوه الملأ صورة الإنسان الناصح، الداعية الذي يريد أن ينصح الناس في دينهم يشوه الملأ صورته فالناس لا يحبونه؛ {وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ}[الأعراف ٧٩]، أي شخص يُذكّرهم بالجنة أو النار لا يحبون أن يسمعوا مثل هذا الكلام.

فيحدث للأسف رفض مجتمعي لأي ناصح، لا نريد أن نسمع، ما شأنك أنت! كل شخص في شأنه، فيحصل نوع من الاشمئزاز المجتمعي لأي أحد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، يحدث -والعياذ بالله- نوعًا من الاشمئزاز المجتمعي له، أمر خطير جدًا أن يصل المجتمع إلى هذه الحالة، وصف قوم صالح قال: {لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ}[الأعراف ٧٩] فحينما يتصف قوم بهذا الوصف، القوم كلهم وليس فرد، القوم كلهم يتصفون بهذا الوصف علامة خطر نزول العذاب!

المجتمع يرفض التغيير، الأمل في عدم نزول العذاب، الأمل في التغيير {إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ}[الرعد ١١] فإذا رفضوا التغيير وكرهوا كل إنسان ينصح؛ فبالتالي هذا يستوجب نزول العذاب، يغلقون منافذ الرحمة عليهم {وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ}[الأعراف ٧٩].

فأسوأ شيء أن يتحول المجتمع ليس فقط يرفض النصح، بل يُشوّه صورة كل إنسان يريد أن ينصح، فتصبح الصورة المجتمعية أنَّ أي أحد يريد أن يُكلّم الناس في الدين أو يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر؛ يُسمّى إرهابيًّا، يُسمّى بأسماء ومصطلحات تُفزِّع الناس منه، ولا يتكلم، ممنوع أن يتكلم وينصح ولا دخل له.

لا دخل له يصلي أو لا يصلي حتى أركان الدين الأساسية، أصبحت تسير في الشارع تسمع سبًا للدين بأذنك، ولا تستطيع أن تنهى عن المنكر، يقول لك ما شأنك؟ هذه حرية شخصية؟

فأصبح هناك رفض مجتمعي، وكانوا قديمًا في البرامج يخرجون نموذجًا يطلقون عليه جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكي يخيفوا الناس منه، ويقول لك إنه ليس من حقه، ويشيعوا رفضًا مجتمعيًا لأي إنسان يأمر بمعروف وينهى عن منكر، نعم لا ننكر وقوع بعض الأخطاء من بعض الدُّعاة، لكن هذا لا يعني نزع هذه الشعيرة من المجتمع.

أسأل الله ﷻ أن يستعملنا لنُصرة دينه، وأن يستعملنا ولا يستبدلنا، وأن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك.